سُورَةُ هُودٍ

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

﴿الٓرۚ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة[1]، واختار غير واحد من المتأخرين كونها اسماً للسورة، أي هذه السورة مسماةٌ بـ: الرَ ﴿كِتَٰبٌ﴾ التنوين فيه للتعظيم، أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليلُ القدر، من لدن حكيم خبير ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظماً محكماً، لا يعتريه خَلَلٌ من جهة اللفظ والمعنى، كالبناءِ المحكم، مصون عن الذلل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بُيِّنت بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، وفُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) للمفسرين آراء عديدة في الحروف المقطعة، والأظهر والأرجح منها أنها إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي يتكلمون بها، وانظر الجزء الأول من تفسير سورة البقرة.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ ﴾ .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾ في موضع العلة، أي لتتركوا عبادة غيره، وتتمحضوا لعبادته سبحانه ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي أنذركم من عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم، وقدَّم الإنذار هنا لأنه هو الأهمُّ.

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ ﴾ .

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ ثم توصَّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، والمرادُ بالتوبة: الإخلاصُ فيها، والاستقرار عليها، وأصل الاستغفار طلب الغفر أي الستر، ومعنى التوبة: الرجوعُ، ويُطلق الأول ـ الاستغفارُ ـ على طلب ستر الذنب، والثاني ـ التوبة ـ الندم عليه مع العزم على عدم العود، فلا اتحاد بينهما ﴿ يُمَتِّعْكُم ﴾ في الدنيا ﴿ مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ بطيب عيش، وسعة رزق، في أمن وسرور ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو آخر أعماركم المقدرة لكم ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ أي يعطي ﴿ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ في دينه أي زيادةً في العمل الصالح ﴿ فَضْلَهُۥ ﴾ أي جزاء فضله أي عمله الصالح في الآخرة، وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين. ومسألةُ إطالة أعمار بعض الناس دون بعض، ليس من الجود الخاص، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض، بل هي جاريةٌ على السُّنَن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، فهو كمسألة الرزق في سعته وضيقه، قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] ثم شرع في الإنذار فقال: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وإن تتولوا أي تعرضوا عما أمرتم به من التوحيد، والاستغفار، والتوبة وتستمروا على الإعراض ﴿ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

بموجب الشفقة أو أتوقع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شاق هو يوم القيامة، وفي إضافة العذاب إلى اليوم الكبير تهويلٌ وتفظيع له، وأخَّر الإنذار عن التبشير، جرياً على سَنَن[1] تقدم الرحمة على الغضب.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ﴾ رجوعكم إلى الله جلَّ وعلا بالموت ثم بالبعث للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبهم أشدَّ العذاب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ضمير «إنهم» للمشركين، أي يثنونها عن الحق، وينحرفون عنه، ويعطفونها على الكفر، وعداوة النبي ﷺ ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله تعالى، وذكر أبو حيان أن الآية نزلت في بعض الكفار، الذين كانوا إذا لقيهم الرسولُ ﷺ، ثَنَوْا صدورهم، وردُّوا إليه ظهورهم، وغشَّوْا وجوهَهم بثيابهم، كراهةً للقائه، ويظنون أنه يخفى عليه ﷺ ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي ألا حين يأوون إلى فراشهم، ويتغطَّوْن بثيابهم أي يلتحفون بما يلتحف به النائم، وهو وقت كثيراً ما يقع فيه حديث النفس عادة ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ بأفواههم، يستوي في علمه تعالى سرُّهم وعلنُهم، فكيف يخفى عليه تعالى ما يظهرونه؟ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس في

(١) سَنَن: السَّنَنُ: الطريقةُ والمثال، يُقال بنَوْا بيوتهم على سَنَن واحد، أي على طريقة واحدة، وانظر المعجم الوسيط.

صدورهم، والتعبير بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالماً بذلك، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصولها وحملاً على التوكل فيه، والمراد من الدابة هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين، أي وما من حيوان يدبُّ على الأرض، إلا على الله تعالى رزقه، ولا يمنع من التوكل مباشرةُ الأسباب، مع العلم بأنه سبحانه المسبِّب لها، ففي الخبر «اعقلْ وتوكَّل» وجاء في الحديث الشريف: «إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأَجَلها، فاتقوا الله تعالى، وأجملوا في الطلب»[1] ولا ينبغي أن يُعتقد أنه لا يحصل الرزقُ بدون مباشرة السبب، فإنه سبحانه يرزق الكثير، من دون مباشرة سببٍ أصلاً كما في قصة مريم ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ محل قرارها في الأصلاب، أو مسكنها في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ موضعها في الأرحام أو القبر[2] ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ، أي كل واحد من الدواب، رزقُها، ومستقرُّها، ومستودَعها مثبت في اللوح المحفوظ المبين، وهذا تحقيق للعلم، كأنه لما ذكر أنه يعلم ما يسرون، أردفه بما يدلُّ على عموم علمه جلَّ وعلا، ثم أتى سبحانه بما يدل على عظيم قدرته من قوله.

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/٢٧ وابن حبان، والحاكم، وانظر جامع الأصول ١٠/١١٧.

(٢) قال ابن عباس: مستقرّها حيث تسكن في الدنيا، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن، وقال مجاهد: مستقرُّها في الرحم، ومستودعها في الصلب، وقد جمع المؤلف بين القولين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الدنيا ليعلِّم العباد التأنّي ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ قبل خلقهما، ليس تحت العرش غير الماء كما ورد في الحديث الشريف: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان عرشه على الماء»[1] وفي الآية دلالة على أن العرش والماء خُلقا قبل السماوات والأرض ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ليعاملكم معاملة من يبتليكم أي يختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب، والعمل غير مختص بعمل الجوارح، فإن لكلٍّ من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به، فكما أن الأول أشرف من الثاني، فكذا الحال في عمله، كيف لا، ولا عمل بدون معرفة الله عزَّ وجل ﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ يا رسول الله ﴿ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ للحساب والجزاء، على ما يوجبه قضية الابتلاء، بظهور مراتب الأعمال ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ أي ليقولن الكافرون منهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ تمادياً منهم في العناد، أي إنه مثل السحر في الخديعة والبطلان، وإنما نسبوا السحر إلى القرآن، لأنه أخبر عن البعث والنشور، وأتى بالقول الفصل في ضرورة حدوثه.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ٦/٢٨٦ في قصة وفد اليمن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، جئنا نسألك عن هذا الأمر!! قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء..» الحديث الخ.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ الموعود في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والظاهر العذاب الشامل للكفرة ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي طائفة من الأيام قليلة ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ استهزاء ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾؟ أيْ أيَّ شيء يمنعه من المجيء؟ ومرادهم إنكار المجيء، والسخرية والاستهزاء بمن يعدهم بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ مدفوعاً ﴿عَنْهُمْ﴾ على معنى لا يرفعه رافع، ولا يدفعه دافع ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي ولئن أعطيناه نعمةً بحيث يجد لذتها في نفسه، والمراد من الرحمة: النعمةُ من صحةٍ، وَسَعَةٍ، وأمنٍ، ونحو ذلك ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه، وإيرادُ النزع للإشعار عن شدة تعلقه بها، وحرصه عليها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ أي قاطعٌ رجاءه من فضل الله تعالى، لقلة صبره، وعدم ثقته به تعالى ﴿كَفُورٌ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحةٍ بعد سَقَم، وغنىً بعد

فقر، وفَرَج بعد شدة، وأمنٍ بعد خوف، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق، وعن ملابسة الضراء بالمسِّ، المشعر بكونها في أدنى الأمور والمصائب اليسيرة، مما يدل على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير، وأنه يريد بعباده اليسر دون العسر، والتعبير بالمسِّ كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي ذهبت عني المصائب التي تسوؤني ولم يتوقع زوالها، ولا يشكر عليها كما هو شأن أولئك الأشرار ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ وأشِر، بالنعم مغتر بها، وأكثرُ ما ورد «الفرحُ» في القرآن للذم، فإذا قُصِد المدح قُيِّد، كقوله سبحانه: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾. ﴿فَخُورٌ﴾ متعظِّمٌ على الناس بما أُوتي من النعم، مشغول بذلك عن القيام بحقها، وحاصله أنَّ الغافلين عند البلاء، لا يكونون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء، لا يكونون من الشاكرين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء، واستسلموا لقضاء الله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكراً على آلائه السالفة، ولمَّا تضمن اليأس عدمَ الصبر، والكفرانُ عدمَ الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده، كأنه قيل: إلاَّ الذين صبروا وشكروا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، وُصِفَ بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ورفع التكاليف، والأمن من العذاب، ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن، من حيث إن إذاقة النعماء، ومساس الضراء، نوع من باب الابتلاء، وواقع موقع التفصيل من الإجمال، جاء قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فالمعنى ليعاملكم معاملة من يختبر البشر.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ أي لعلك تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك، مخافة استهزائهم به والمقصودُ من ذلك تحريضه ﷺ وتهييجه لأداء الرسالة، وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ أي وعارضٌ لك أحياناً ضيقُ صدرك من تبليغه، خشية التكذيب ﴿ أَن يَقُولُوا۟ ﴾ أي لأن يقولوا تعامياً عن تلك البراهين الساطعة، وتمادياً على العناد على وجه الاقتراح ﴿ لَوْلَآ ﴾ أي هلاَّ ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أي مالٌ كثير من السماء يستعين به في أموره كالملوك ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ يصدِّقه ويشهد بنبوته، كما قال طغاة مكة: اجعل لنا جبال مكة ذهباً، وقال آخرون منهم: ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، قال تعالى محدِّداً مهمته: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ بما أوحي إليك، غير مبالٍ بما صدر عنهم، من الردّ والتكذيب ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي حفيظ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكل عليه في جميع أمورك، فإنه تعالى فاعل بهم ما يليق بحالهم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي بل يقولون إنه ليس من عند الله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأْتُوا۟ ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ في البلاغة، والفصاحة، والجزالة، وحسن النظم، وقوة المعنى ﴿ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ أي فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة، مختلقاتٍ من عند أنفسكم، إن صحَّ أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب، فصحاء،

بلغاء، تمارسون الخطابة والأشعار، وفيكم ملوك الفصاحة، وأساطين البيان، وهذا التحدي وقع أولاً، فلما عجزوا، تحداهم بسورة مثله، كما نطقت به سورة البقرة، ويونس ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به، من آلهتكم التي تزعمون أنها تنفعكم، والكهنة الذين تلجؤون إلى آرائهم في الملمات، ليساعدوكم في ذلك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله ربُّ العزة والجلال ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أني افتريته على الله.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم، إلى ما دعوتموهم إليه من المعارضة، وتبيَّن عجزهم عنه بعد التحدي لهم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي ملتبساً بالوحي بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا معبود في الوجود إلا الله، وأنه سبحانه لا شريك له في الألوهية ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم داخلون في الإسلام، بعد قيام الحجة البالغة؟ المراد بما لا يعلمه غيره، من الكيفيات والمزايا التي بها الإعجاز للبشر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بإحسانه وبره وأعماله الصالحة ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي يريد نعيم الدنيا فقط، وما يزيِّنها ويحسنها من الصحة، والأمن، والسعة في الرزق، وغير ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاء ما

عملوه من خير، كصدقة، وصلة ﴿فِيهَا﴾ في الدنيا من الصحة، والرياسة، وسعة الرزق، وكثرة الأولاد، وليس المراد بأعمالهم كلِّها، فإنه لا يجد كل متمنٍّ ما يتمناه، فإن ذلك منوط بالمشيئة، الجارية على قضية الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾[1] ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم شيئاً وإنما عبر عن ذلك بالبخس، الذي هو نقص الحق، مبالغةً في نفي النقص، فلا يدخل تحت الوقوع عن الكريم أصلاً، أمَّا في الآخرة فهم في الحرمان المطلق، كما ينطق به قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المريدون للحياة الدنيا ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا، وقد اجتنوا ثمراتها، ولم يريدوا بها شيئاً آخر، فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلاَّ النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرةِ مِنْ نَصِيب﴾[2] ﴿وَحَبِطَ﴾ بطل ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي ظهر في الآخرة ضياع ما صنعوه من أعمال الخير، إذْ شرطُ الاعتداد بها الإخلاص، ولم يريدوا وجه الله تعالى ﴿وَبَاطِلٌ﴾ في نفسه ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لعدم شرط الصحة، والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة، الذين يعملون البر على الوجه الذي لا ينبغي، ومن هنا اشتهر أن الكافر، يُعَجَّل له ثوابُ أعماله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب،

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٨.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٠.

لكنْ ذهب جماعة إلى أنه يُخفَّف بها عنه من عذاب الآخرة، ويشهد له قصة أبي طالب، الذي أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه في ضحضاحٍ من نار، وقال: لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ برهان يدله على الحق والصواب، وهو القرآن، لأنه بينة باقية على وجه الدهر ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي ويتبعه ﴿شَاهِدٌ﴾ والتنوين في «بيِّنة» و«شاهد» للتفخيم، أي شاهد عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه، في كل مقدار سورة منه ومعنى كون ذلك تابعاً له، أنه وصفٌ له لا ينفك عنه، فلا يستطيع أحد من الخلق، جيلاً بعد جيل معارضته ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو من جهة الله تعالى[1] فالمعنى: هل من كان يريد الحياة الدنيا، كمن كان على بينة من ربه، ويشهد له شاهد؟ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة أيضاً يتلوه في التصديق، وتخصيص كتاب موسى بالذكر، لأن اليهود والنصارى مجتمعان على أنه من عند الله، بخلاف الإنجيل ﴿إِمَامًا﴾ أي كتاباً مؤتماً به في الدين، ومقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم، لأنها الطريق إلى الفوز بخير الدارين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة

(١) هذا ما اختاره المصنف، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية الكريمة: أفمن كان على نور واضح وبرهان ساطع من الله عزَّ وجل، وهو النبي ﷺ وأتباعه المؤمنون، وجوابه محذوف تقديره: كمن كان همه الحياة الدنيا؟ لا يستوون عند الله، ويتبعه شاهد من الله بصدقه وهو جبريل، ولعل هذا القول أظهر والله أعلم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدِّقون بالقرآن حقَّ التصديق، دون شك أو ارتياب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَرِدُها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن وكونه من عند الله ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي الحقُّ الثابت المقطوع بصدقه المنزَّل من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك لقصور أنظارهم، واختلال أفكارهم، ولعنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ﴾ بأن نسب إليه ما لا يليق، كقولهم: الملائكة بنات الله، وقولهم لآلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والمراد من الآية ذم أولئك الكفرة، بأنهم مع كفرهم بآيات الله، مفترون عليه سبحانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي مالكهم الحق فيفتضحون على رؤوس الخلائق ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عند العرض، وهو جمع شاهد أو شهيد، والمراد بهم الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ في الدنيا بالافتراء عليه، كأنَّ ذلك أمر واضح غنيٌّ عن الشهادة، وإنما المحتاج تعيين من صدر عنه ذلك، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الأشهاد، والتشهير بهم خزياً ونكالاً ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور، وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم، والظاهرُ أن هذا من كلام الأشهاد، ويؤيده ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يُدني المؤمن، حتى يَضعَ كَنَفه عليه - بمعنى سِتْره - ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول:

نعم، حتى إذا رأى في نفسه أنه هلك، قال الله له: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلاءِ الَّذينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلى الظَّالِمينَ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ يمنعون الناس عن الإيمان واتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصل إلى الله ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجّة، أي دين الله منحرفاً عن الحق والصواب، منسجماً مع أهوائهم ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي هم جاحدون بالآخرة، منكرون للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هؤلاء الفجار ليسوا مفلتين من عذاب الله، بل هم تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويمنعهم من العقاب، أو ينجيهم من عذاب السعير ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ ﴾ أي يضاعف الله لهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿ مَا كَانُوا۟

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٥٣ فتح الباري، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٦٨.

﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي سبب مضاعفة العذاب وتشديد العقاب، أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن إبصار نور الهدى، بكماً عن النطق بكلمة التوحيد، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من الحواس، فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم المؤبدة، ويا له من خسرانٍ مبين!! وشقاء واضحَ!! ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة، وبطل ما كانوا يؤملونه من النجاة من عذاب الجحيم، كما قال سبحانه عنه: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ ونتيجة لهذا الطغيان فقد حكم الله عليهم بالشقاء فقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر البشر، وأشقى البشر، ولا ترى أحداً أوضح خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران[1].

وبعد أن وضّح حال أولئك الأشقياء المجرمين، شرع في شرح أضدادهم وهم المؤمنون، وبيان ما لهم من العواقب الحميدة، ليظهر ما بينهما من التباين العجيب، والمصير المنتظر، حالاً ومآلاً، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان، بحميم آن، وعن الحور العين بطعامٍ من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي صدَّقوا بكل ما يجب التصديق به، من القرآن وغيره ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي الأعمال الصالحات ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، وأصل الإخباتِ: نزولُ الخبت وهو المنخفض من الأرض، ثم أُطلق على الاطمئنان والخشوع، فقوله سبحانه: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إشارة إلى جميع أفعال الجوارح ﴿وَأَخبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ إشارة إلى أعمال القلوب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ دائمون أبداً، لا يخرجون منها.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ المؤمن والكافر أي حالهما العجيبة التي تشبه المثل في الغرابة ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ هذا مثل الكافر ﴿ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ وهذا مثل المؤمن، وفيه تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، كما فيه من المحسنات البديعية ما يسمى باللفّ والنشر، حيث عاد السميع على الأصم، والبصير على الأعمى، ثمَّ الطباق بين الأعمى والبصير ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هل يستوي الفريقان تمثيلاً وصفة؟ والاستفهام إنكاري معناه لا يستويان مثلاً، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه، كحال من يتخبط في ظلمات الضلالة، ولا يعرف طريق النور والهداية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تتذكرون بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل؟

ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وبيان حالهم مع أممهم، ليزداد ﷺ تحملاً لما يقاسيه من المعاندين، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ على إرادة القول أي فقال لهم: إني لكم نذيرٌ مبين، أي مخوِّف من عذاب الله، والاقتصارُ على ذكر كونه نذيراً، لأنهم لم يغتنموا مغانم بشارته، بل جابهوه بالتكذيب ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي موضح لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وفي هذا تبيين لوجه الخلاص، وهو عبادة الله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ المراد به يوم القيامة، أو يوم الطوفان، وصف العذاب بالأليم أي المؤلم للمبالغة، فكأن العذاب نفسه يتألم من شدته.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وصفهم بالكفر لذمهم، لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة، بل كلهم كفار فجار، كما قال عنهم: ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[1] ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي لا مزية لك علينا تخصك

(١) سورة نوح، آية: ٢٧.

بالنبوة، ووجوب الطاعة ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أرادوا بقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأي﴾ ظاهره، وهو ما يكون من غير تعمق، وإنما استرذلوهم مع كونهم من أولي الألباب الراجحة، لفقرهم، وقلة جاههم، فإنهم لمَّا لم يعلموا إلاَّ ظاهر الحياة الدنيا، كان الأشرف عندهم الأكثر مالاً وجاهاً، كما ترى بعض المتسمِّيْنَ بالإسلام، يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة، والرفعة لا تكون بالمال والمناصب، والحسب بل بمتابعة الرسل، ومتانة الدين والأخلاق ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي لك ولمتبعيك ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة من المال والجاه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أدرجوا قومهم معه في الخطاب، أي بل نظن إياك في دعوى النبوة، وإياهم في دعوى العلم بصدقك، نظنكم كاذبين، تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبباً للرياسة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي حجة شاهدة بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء النبوة، جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينة من عند الله تعالى، رحمة ونعمة عظيمة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم، من العمى ضد البصر، والمراد به هنا الخفاء مجازاً، يقال: حجةٌ عمياء كما يقال: حجة مبصرة، للواضحة الجليّة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنكرهكم على الاهتداء بها؟ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي لا تختارونها ولا تتأملون فيها؟ ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة، ظاهرة الدلالة على صحة دعواي، إلاَّ أنها خافيةٌ عليكم، أيمكننا أن نكرهكم على قبولها، وأنتم معرضون عنها؟ أي لا يكون ذلك أبداً.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، وإن لم يذكر فمعلومٌ ممَّا ذُكر ﴿مَالًا﴾ تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم، فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثوابي وجزائي إلا من الله ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ جواب عما لوَّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ والمرويُّ عن ابن جريج أنهم قالوا له: يا نوح إن أحببتَ أن نتبعك، فاطرد هؤلاء، وذلك كما قالت قريش للنبي ﷺ في فقراء الصحابة وهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوع إشارة إليه ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي إنهم مؤمنون يلاقون ربهم ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بأقدارهم، وفي التماس طردهم، وتجهلون بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ أي من يصونني ويدفع عني حلول سخطه؟ والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم بتلك الكرامة والزلفى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتعظون فلا تتذكرون بما ذكر من حالهم، حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب؟!.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ خزائن رزقه حتى جحدتم فضلي ﴿وَلَآ

﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا أدعي في قولي: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ علم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، وما ذكرت من دعوى الإنذار بالعذاب، إنما هو بوحي وإعلام من الله تعالى ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلاَّ بشراً، فإن البشرية ليست من موانع النبوة، يعني إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي، والحالُ أنّي لا أدَّعي شيئاً من ذلك ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقولُ في شأن من استرذلتموهم لفقرهم، وأصل الازدراء الإعابة، يقال: ازدراه إذا عابه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فإنَّ ما أعدَّ الله لهم في الآخرة، خير مما آتاكم في الدنيا، فعسى الله أن يؤتيهم خير الدارين ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الإيمان وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر إلى النفاق، وإنما اقتصر على القول المذكور، مع أنه جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين، جرياً على الإنصاف، وإرشاداً لهم إلى سلك الهداية بأن اللائق لكل أحد، أن لا يبتَّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ إذا قلت ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم بحط مرتبتهم، وفيه تعريض بأنهم ظالمون بازدرائهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ونازعتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي حاججتنا فأطلته، أو أتيت بأنواعه، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل حرفة الأنبياء، والتقليد والجهل، والإصرار على الباطل، حرفة الكفار، ولمَّا حجهم عليه السلام، وأبرز لهم بينات واضحة الدلالة، بردِّ شبههم الباطلة، ضاقت عليهم الحِيَلُ فقالوا عند ذلك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المعجل ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثّر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فإن أمره إليه سبحانه لا إليَّ يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، والجملة دليل جواب قوله سبحانه ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم، لا ينفعكم نصحي، وهذا الكلام صدر عنه إظهاراً للعجز، عن إلزامهم بالحجج والبينات، لتماديهم في العناد، وإيذاناً بأنَّ ما سبق منه ليس بطريق الجدل، بل بطريق النصيحة لهم، والشفقة عليهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول قوم نوح، إنَّ نوحاً افترى ما جاء به مسنداً له إلى الله تعالى؟ ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ بالفرض البحت ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي عقوبة إثمي، وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ، وقوله: ﴿إِنِ افتَرَيْتُهُ﴾ لا يدل على أنه شاكٌّ، لأنه قول يُقال على وجه الإنكار، عند اليأس من القبول.

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية الكريمة، من تتمة قصة نوح وهو الظاهر، وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ مع مشركي مكة.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ﴾ المصرِّين على الكفر، وهو إقناط له من إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ أي من استمر على الإيمان، وللدوام حكم الحدوث ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن حزن بائس ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء، والايذاء في هذه المدة الطويلة، قيل: إن نوحاً عليه السلام لشدة محبته إلى إيمانهم كان يسأل إيمانهم، فأعلمه ربُّه أنه لا يؤمن أحد منهم فقد حان وقت الانتقام منهم.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منَّا وحفظنا، والأعين حقيقة في الجارحة، وهي جارية مجرى التمثيل، حيث مثّل للحفظ والرعاية بمن يرقب بعينه صنع الشيء بدقة، والمراد: اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا فهو كناية عن الرعاية والحفظ كما يقال للمسافر: صحبتك عين الله ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعها، قال مجاهد: أي اصنعها كما نأمرك ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفّه، وفي هذا حكم قاطع لقوم نوح بالهلاك.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ تقديره وأخذ يصنع الفلك، فهي حكاية حالة

ماضية، لاستحضارها في الذهن، كأنَّ الإنسان يشاهد نوحاً عليه السلام وهو يصنع السفينة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء، أو لأنهم ما كانوا يعرفونها، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرتَ نجَّاراً بعد ما كنتَ نبياً؟!.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا وإطلاق السخرية للمشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لا في الكيفية، التي لا تليق بشأن النبي وبمنصب النبوة، وقيل: إنها لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، قال بعضهم: إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق، بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وفيها إشارة إلى أنه بعد أن يئس من إيمانهم، لم يبال بإغضابهم، فلذا هددهم بقوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يُهينه، ويُذلُّه، ويُهلكه وهو عذاب الغرق ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي ينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ والأمرُ: واحد الأمور وهو الشأن، أعني نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفي ذلك عجيب القدرة، ولا تنافي بين هذا وقوله

سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ إذ يمكن التفجير وهو غير الفوران، فخصَّ الفوران للتنور، والتفجير وهو للأرض، والتنُّور تنور الخبز وهو قول الجمهور، وعن ابن عباس وعكرمه التنور هنا: وجه الأرض ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها، لينتفع به الذين ينجون من الغرق وذراريهم بعد ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنية زوج، والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى، وحاصل المعنى: احمل ذكراً وأنثى، من كل نوع من الحيوانات، وعن وهب بن منبه قال: «لمَّا أمر الله نوحاً بالحمل، قال: كيف أصنع بالأسد والبقرة، وبين الشَّاة والذئب، وبين الحمام والهرة؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يارب، قال: فإني أؤلف بينهم»[1] والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً، وأنه لم يؤمر بحمل الحشرات والسباع، بل أُمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا المؤمنون من الغرق ﴿وَأَهْلَكَ﴾ والمراد بأهله: امرأته المسلمة، وبنوه منها وهم: «سام» أبو العرب، و «حام» أبو السودان، «ويافث» أبو الترك، وأزواجهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه «كنعان» وأمه واعلة فإنهما كانا كافرَيْن وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا﴾ وجيء بعلى لكون السابق ضاراً لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي والمؤمنين من غيرهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل تسعة وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦١ ففيه روايات كثيرة.

﴿ ۞وَقَالَ ﴾ نوح ﴿ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا ﴾ أي اركبوا في السفينة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾ أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها روي عن الضحاك قال: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: ﴿بِسمِ اللهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن ترسو أي تقف قال: ﴿بِسمِ اللَّهِ﴾ فترسو؛ فهذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ ﴾ للذنوب والخطايا ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ لعباده، ولولا مغفرته ورحمته لما نجاكم من هذه الطامة.

﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ ﴾ أي فركبوا وهي تجري بهم وهم فيها ﴿ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ أي في موج من الطوفان، كل موجة منها كالجبال، في تراكمها وارتفاعها، والأمواج العظيمة تحدث عند حصول الرياح الشديدة، فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياحٌ عاصفة، وهذا الجريان إنما كان قبل أن يتفاقم الخطب، كما يدل عليه قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ واسمه كنعان، فإنَّ ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والأرض ﴿ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ ﴾ أي في مكان منقطع عن أبيه وعن السفينة ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ في السفينة، يا بني بالتصغير من باب التحنن والرأفة، وكثيراً ما ينادي الوالد ولده كذلك ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ في المكان فتهلك مثلهم.

﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ ﴾ أي سأنضم ﴿ إِلَىٰ جَبَلٖ ﴾ من الجبال ﴿ يَعۡصِمُنِي ﴾ يحفظني بارتفاعه ﴿ مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ فلا يصل إليَّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه، وأن الماء لن يصل إلى رؤوس الجبال ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي قال له أبوه نوح عليه السلام: لا ناجي ولا معصوم اليوم من عذاب الله، إلا من رحمه الله، زاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام، وعبّر عن الماء (بأمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾

تفخيماً لشأنه، فإن أمر الله لا يُغالب، وعذابه لا يُردُّ، كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو، وإنما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل، كلُّ ذلك لكمال عنايته بتحقيق ما يتوخاه، من نجاة ابنه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب، بقوله لا يعصمك الجبل ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي فكان من غير مهلة من المغرقين، فانقطع ما بينهما من المجادلة، وفيه دلالة على غرق سائر الكفرة، والحكمة في كفر أرحام الرسل، ككفر والد إبراهيم، وولد نوح، هو تقرير أصل التوحيد، بالفصل بين ما هو لله، وما هو لرسله، وما عليهم إلاَّ البلاغ، لا يملكون لأحدٍ ضراً ولا نفعاً.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ أي بعد تناهي الطوفان ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ أي انشقي وابتلعي ماءك، استعير له من ازدراء الحيوان ما يأكله، للدلالة على أن ذلك ليس كالنشفان المعتاد التدريجي، وتخصيص البلع بما يُؤكل هو المشهور عند اللغويين، فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق، وهو هنا استعارة لغور الماء في الأرض ﴿مَآءَكِ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان، دون المياه المعتادة فيها من العيون، والآبار، والأنهار، وعبَّر عنه بالماء، بعد ما عبَّر عنه بأمر الله، لأن المقام هنا مقام النقص والتقليل، لا مقام التفخيم والتهويل ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص وذهب في أغوار الأرض، قال الجوهري: غاض الماء إذا قلَّ، وتفسيره بالنقص مرويٌّ عن مجاهد ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُنجز الموعود من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت ستة أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالموصل وقيل: بالشام، والمشهور الأول، روي أنه ركب السفينة عاشر

رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم وصار سنة ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم، يقال: بَعُدَ بُعْداً، وبعيداً: إذا بَعُد بحيث لا يُرجى عوده، ثم استعير للهلاك، وخُصَّ بدعاء السوء.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وقد ألَّف شيخنا علاء الدين رسالة في هذه الآية، جمع فيها بدائع، وأظهر من مزاياها الكثير[1].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وقد وعدتني إنجاءهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعدٍ تعِدُه حقٌّ، لا يتطرق إليه الخُلْفُ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، وهذا النداء منه يقطر منه الاستعطافُ، وجميلُ التوسل إلى من عهده منعماً ومتفضلاً، في شأنه أولاً وآخراً، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

---

(١) هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وقد اهتمَّ بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان في البحر المحيط ٥/٢٤٧ حيث قال طيَّب الله ثراه: «في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة بين قوله: ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿سماء﴾ المراد به مطر السماء والاستعارة في ﴿ابلعي﴾ والإشارة في قوله: ﴿وغيض الماء﴾ فهو إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل في قوله ﴿وقُضي الأمر﴾ عبَّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن، والاحتراس في ﴿بُعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة» ثم ذكر بقية الوجوه فارجع إليها في تفسيره البحر المحيط، وقد قال ابن المقفَّع وهو من أساطين الأدباء والفصحاء: أشهد أن مثل هذا الكلام لا يستطيع أن يأتي به بشر.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ ولما كان دعاؤه بتذكير وعده مبنياً على كون كنعان من أهله، نفى تعالى أولاً كونه منهم، بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من أهل دينك، لأن مدار الأهل هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين المسلم والكافر، ثم علّل عدم كونه منهم بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ أصله إنه ذو عمل غير صالح، فحذف «ذو» للمبالغة، بجعله عين عمله للمداومة عليه، ثم لما كان دعاؤه مبنياً على كون «كنعان» من أهله، ونفى ذلك عنه وحقق ببيان علته، وهو أن عمله سيِّء غير صالح، فلهذا أعقبه بقوله ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ أي إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ ما لا تعلم، أصواب هو أم ليس بصواب؟ عُوتب عليه السلام بأنَّ مثله في معرض الإرشاد، لا ينبغي أن يشتبه عليه أمر ولده الكافر، فيطلب من ربه نجاته ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك، خشية أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه تذكير وتحذير، ولذلك استعاذ نوح عليه السلام بالله أن يطلب ما لا يحقُّ له، وأن يقع منه ما نُهي عنه، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ أي يا رب إني أعوذ بك أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ولا أنه صواب، وهذه توبة منه عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ أي وإن لم تغفر لي ما فَرَط مني من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بقبول توبتي، وبالفضل عليَّ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي أكون

خاسراً بسبب ذلك، فإن الذهول عن شكر الله تعالى، لا سيما عند وصول هذه النعمة، التي هي النجاة، وهلاك الأعداء، خسران مبين، وهذا التضرع منه مثل تضرع آدم عليه السلام، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[1].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾ أي قال الله سبحانه لنوح ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي انزل من السفينة سالماً من المكاره من جهتنا، وبسلام وتحية منا عليك، كما قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ في العالمين﴾ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك في نسلك، وما يقوم به معاشك، وهذا منه تعالى إعلامٌ وبشارة بقبول توبته، وخلاصه من الخسران ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ أي وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتشعب الأمم منهم، فالناس كلهم من نسل نوح ومن هنا سمي نوح آدم الثاني، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وعن محمد القرظي قال: «دخل في ذلك السَّلامِ والبركاتِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة»[2] وعن الحسن أنه قال: «ما زال الله تعالى يأخذ لنا بسهمنا، كلَّما هلكت أمةٌ خَلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه، حتى جعلنا في خير أمة أُخرجت للناس»[3] وههنا لطيفة وهي أنه

---

(١) الأعراف، آية ٢٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١٢/ ٦٤.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن البصري.

قد تكرَّر في هذه الآية حرف واحد وهو الميم مرات[1]، مع غاية الخفة، ولم تكرر الراء مثله، في قوله:

وقبـــرُ حـــرب بمكـــان قفـــرُ ... وليـــس قـــرب قبـــر حـــرب قبـــر

وهذا مع ما ترى فيه من غاية الثقل، وعسر النطق.

فللهِ تعالى شأن التنزيل ما أكثر لطائفه.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي من بعض الأخبار الغيبية التي لم تشهدها ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ نوحيها إليك بواسطة الوحي، والغرضُ من ذكر كونها موحاة، هو لإلجاء قومه للتصديق بنبوته، وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ أي مجهولة عندك وعند قومك، من قبل إيحائنا إليك، وفي ذكرهم تنبيه على أنه ﷺ لم يتعلمه، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوه فكيف بواحد منهم؟ ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على مشاقِّ الرسالة، وأذيَّة القوم كما صبر نوح ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ ﴾ بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما شاهدته في نوح عليه السلام، فهي تسلية للنبي ﷺ وتعليل للأمر بالصبر، فكأنه قيل: فاصبر فإن العاقبة للصابرين.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) تكررت الميم في هذه الآية خمس عشرة مرة، وبقيت في جمالها ورونقها من غير ثقل، وهذا سرٌّ من أسرار دقائق الإعجاز البياني.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿أرسَلْنَا﴾ في قصة نوح ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أي واحداً منهم في النسب، كقولهم يا أخا العرب ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم، هو هود عليه السلام أرسل إليهم منهم، ليكون ذلك أدعى إلى اتّباعه، والمراد استمالة قوم النبي ﷺ، لأنهم يستبعدون أن واحداً منهم، يكون رسولاً إليهم، فذكر الله أن هوداً كان واحداً من قومه عاد، وأن صالحاً كان واحداً من ثمود، لإزالة ذلك الاستبعاد ﴿ قَالَ﴾ هود ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي خصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم باتخاذكم الأصنام ﴿ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أي تكذبون على الله تعالى، فليس له سبحانه نظير ولا شريك.

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ أي ما أجري ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ ﴾ أي خلقني، فهو خالقي وهو رازقي، وإيراد اسم الموصول للتفخيم، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام غني عن أجرهم ومالهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي ألا تستعملون عقولكم، فتعرفوا المحقَّ من المبطل، والصواب من الخطأ؟.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والعصيان ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإنابة ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يرسل المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نَـزَل السَّمَـاءُ بـأرضِ قَـوْمٍ رَعَيْنَـاه وإنْ كـانُـوا غِضَـابـاً

﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدر، متتابعاً من غير إضرار، فمفعال للمبالغة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ منضمة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي مع قوتكم، وإنما رغَّبهم بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وثمار، وقيل حبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فوعدهم عليه السلام كثرة الأمطار على الإيمان والتوبة ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرِّين على إجرامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجةٍ تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ أي بتاركي عبادتها ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي لقولك اعبدوا الله وحده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناطٌ له من الإجابة والتصديق، وقد بالغوا في الإباء، فأنكروا الدليل، ثم قالوا مؤكدين لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ ثم كرروا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مبالغة في الضلال.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، يُقال: عراه إذا أصابه ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أرادوا به قاتلهم الله تعالى الجنون، أي أنه جُنَّ بسبب إصابة الأصنام له بالأذى، والتنكيرُ في ﴿بسوءٍ﴾ للتقليل، كأنهم لم يبالغوا في السوء، كما ينبىء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها، ومعنى هذا أنه أفسد عقلك، بعضُ آلهتنا لسبِّك إيَّاها، وصدِّك

عن عبادتها، وحطّك لها عن رتبة الألوهية ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام مجيباً لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من هذه الأوثان والأصنام.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي واشهدوا أنتم بأنني بريء مما أنتم تجعلونه شريكاً لله، وهو سبحانه لم يُنزل به سلطاناً، وقد أجاب عليه السلام بهذا على مقالتهم الشنيعة، المبنيَّة على اعتقاد كون آلهتهم تضرُّ وتنفع، وصرَّح بالحقِّ، وصَدَع به، حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدَّرة بـ ﴿إني﴾. وأكد ذلك بأُشهد الله، وأمرهم بأن يشهدوا أنفسهم به ثم أمرهم بالاجتماع مع آلهتهم جميعاً في إيصال الأذى إليه ونهاهم عن الانتظار والإمهال فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ إن صح كون آلهتكم مما تقدر على إضرار من يصد عن عبادتها، فإني بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي، ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجمّ الغفير، من العتاة الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقّرهم وآلهتهم، وحثَّهم، وهيَّجهم على التصدّي لأسباب المعاداة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم ظهوراً بيناً، كيف لا وقد التجأ إلى ركنٍ منيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي لا أهابكم لاعتمادي على الله، والمعنى: إنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني، فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، ثم أقام البرهان بقوله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمةٍ تدبُّ على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي إلا هو مالك لها، قادر عليها، أن يصرّفها على ما يريد، والأخذ بالنواصي تمثيلٌ لذلك

والناصية منبتُ الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي عليه «ناصية» للمجاورة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع لآخر، قالوا ناصيةُ فلانٍ في يد فلان، أي إنه مطيع له منقاد إليه كالعبد الذليل، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مندرج في البرهان، وهو تمثيل لأنه تعالى مطلع على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم به، كمن وقف على الجادة، فحفظها ودفع ضرر قُطّاع الطريق عنها، فالمعنى إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فإن تتولوا والمراد فإن تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾ فقد أديت ما عليَّ من الإبلاغ وإلزام الحجة، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وعيد لهم بأن الله يهلكهم، ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي لا تضرونه بهلاككم شيئاً، لا ينقص ملكه، ولا يختل أمره ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب على كل شيء، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أمرنا بالعذاب، وهو الذي نزل فيهم من الريح العقيم، وهي السموم التي تدخل في مناخرهم، وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على الأرض، حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، عذَّبهم الله سبحانه بها سبع ليال، وثمانية أيام متتابعة ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾

وكانوا أربعة آلاف، ولا ينافي ما تقدم من أنه كان وحده، ولذا عُدَّت مواجهته للجم الغفير معجزة له، والظاهر أن ما كان من المقاولة، إنما هو في ابتداء الدعوة، ومجيء الأمر كان بعده بكثير، وإيمان من آمن كان في البين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ وهي الإيمان الذي أنعمنا به عليهم ورُوي هذا عن ابن عباس والحسن، والجار والمجرور متعلق بنجينا، وهو الظاهر الذي عليه كثير من المفسرين ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو السموم المذكور، والغليظ صفة الريح وهو ضد الرقة، وفيه مناسبة لحال الكفرة، فإنهم كانوا غلاظاً شداداً، روي أن هوداً لما أحسَّ العذاب، اعتزل بالمؤمنين في حظيرة، فكانت الريح تمر بهم ليّنةً باردة، والتي تمر تصيب القوم شديدة مهلكة، وهذه من معجزاته.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أُنثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة، والخطاب لأمة الرسول ﷺ، كأنه قال: سيروا فانظروا إليها، والمقصود الحث على الاعتبار والاتعاظ بأحوالهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها، وهي الآيات التي أيد تعالى بها رسله، أو آيات وجوده وتوحيده في الأنفس والآفاق ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم اتفقوا على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ يعني كبرائهم الطاغين. قال الزجاج: الجبَّارُ هو الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿عَنِيدٍ﴾ أي طاغ إذا ركب الخلاف والعصيان، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان، وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعلت اللعنة لازمة لهم، وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي أُتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة، حُذفت لدلالة الأولى عليها ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ كفروا نعمه ولم يشكروها بالإيمان ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع أنهم هالكون، تسجيلاً عليهم ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته الإيماء إلى استحقاقهم للبعد، بما جرى بينهم وبين هود.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا كوَّنكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم من التراب، والنطف تتولد من الدم، وهي من الأغذية، وهي حاصلة من الأرض ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم مدة الحياة ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة، كقوله سبحانه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ﴿مُّجِيبٌ﴾ دعاء المحتاجين بفضله.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ فاضلاً خَيِّراً نقدّمك على جميعنا، ونأمل أن تكون سيداً مطاعاً ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الآلهة، فلما سمعنا هذا القول منك، انقطع رجاؤنا عنك ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأوثان على جهة التوعد ﴿وَإِنَّنَا لَفِى

شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الشك والريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، وهذا مبالغة منهم في تزييف كلامه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ أي مالكي ومتولي أمري ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾ أي من جهته ﴿رَحْمَةً﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة، لكنها صُدِّرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين، لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ فمن ينجيني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي إن عصيت أمره في تبليغ الرسالة، والمنع عن الشرك به تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ أي لا تفيدونني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي، فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله، ولا تنالوها بأذى فيأخذكم عذاب عاجل، قريب النزول إن عقرتموها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي قتلوها ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا ﴿فِى

دَارِكُمْ﴾ في منازلكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء، والخميس، والجمعة، ثم يصحبكم العذاب فتهلكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أربعة آلاف ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بسببها ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من ذلة ذلك اليوم، وهو الهلاك بالصيحة، وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنها فضيحة باقية يعتبر بها الأجيال ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي خامدين ميتين لا يتحركون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ في دارهم ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ وضع موضع المضمر لزيادة البيان ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق تقبيحاً لحالهم، وتعليلاً لاستحقاقهم لقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي هلاكاً لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط، جاؤوا إلى إبراهيم بالبشارة، وإنما أسند المجيء دون الإرسال، لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه، بل إلى قوم لوط، وإنما جاؤوه لداعية البشرى ﴿ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ أي بالبشارة بالولد من سارة بإسحق، ويعقوب من بعده، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أي سلَّمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ أي سَلام عليكم، وهو أكمل من السلام عليكم، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة، كأنه قال: سلام كاملٌ تام عليكم[1] ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فما أبطأ إبراهيم عليه السلام عن مجيئه بالطعام وهو عجل مشوي، قيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمسة عشر يوماً لا يأتيه ضيف، فاغتمَّ لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافاً على صورة الغلمان، في غاية الحسن والجمال، لم ير مثلهم، وكان من دأبه إكرام الضيف، ولذا عجَّل القِرَى، وهو العجل ولد البقرة، والحنيذ المشوي في أخدود، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يُحضر الإنسان للضيف أكثر مما يأكل، وهل كان مهيأ قبل مجيئهم، أو أنه هيىء بعد أن جاؤوا؟ قيل بالأول لدلالة السرعة بالإتيان، والظاهر أنه هيأه لهم بعد مجيئهم، لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي لا يمدُّون إليه أيديهم للأكل

(١) ردَّ التحية عليهم بأحسن من تحيتهم، لأنه جاء بها جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت والاستمرار.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكر ذلك منهم، وخاف أن يريدوا به مكروهاً، لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، ولم يأكل من طعامهم، ظنُّوا أنه لم يجىء بخيرٍ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي أحسَّ من جهتهم الخوف والفزع، أو أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ أي خوفاً ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فنحن ملائكة ربك، أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط المجرمين وما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف، بل بعد إظهاره لهم، كما في سورة الحِجْر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ولم يُذكر ههنا اكتفاءً بذلك.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هاران وهي بنت عمه ﴿قَائِمَةٌ﴾ وراء السِّتر، تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة وهو مرويٌّ عن مجاهد، وكانت نساؤهم لا تحتجب، لا سيَّما العجائز ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بهلاك أهل الفساد ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي عقَّبنا سرورها بسرور أتم منه، على ألسنة رسلنا، لأن النساء أعظم سروراً للولد من الرجال ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بشِّروها بإسحاق ولداً منها، ومن بعده مولود يسمى يعقوب، من ولدها إسحق، تعيش إلى أن تراه، وتوجيهُ البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم، لكونها كانت عقيمة حريصة على الولد، وكانت قد تمنته حينما وُلد لهاجر إسماعيل، وهي كانت محرومة الولد بسبب العقم والشيخوخة.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ أي يا عجبا ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾؟ بنت تسع وتسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي ﴿شَيْخًا﴾ أي شيخ هرِمٌ ابن مائة وعشرين سنة؟

أي كيف ألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟ أنا امرأة عقيم مسنة، وزوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً، وإنما قدمت بيان حالها، لأنها أعجب وأغرب، إذ ربما يولد للشيوخ، وأما العجائز فداؤهنَّ العقام ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما ذكر من حصول الولد من هرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر غريب بالنسبة إلى سنة الله، المسلوكة بين عباده، ومقصدُها استعظام نعمةِ الله عليها في ضمن الاستعجاب، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، فإنها مؤمنة زوجة خليل الرحمن.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؟ أي أتتعجبين من قدرته، وحكمته، وتكوينه؟ أنكروا عليها تعجبها لأنها ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ أي رحمكم الله برحمته الجليلة، التي وسعت كل شيء ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي خيراته النامية الدائمة ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ أي عليكم يا أهل بيت النبوة «بيت إبراهيم» عليه السلام، واستدل بالآية على دخول الزوجة في أهل البيت، واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ أي إنه سبحانه محمود ممجَّد، يفعل ما يستوجب الحمد من عباده، فعيل بمعنى مفعول أي محمود ﴿مَّجِيدٞ﴾ أي كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه بعرفانهم وسبب مجيئهم، والرَّوعُ: الفَزَعُ والخوفُ ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالولد، وجواب لمَّا محذوفٌ تقديره أقْبَلَ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل

رسلنا في شأنهم، ومجادلته إياهم قوله ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ كما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ وعُدَّ قولهُ مجادلة، لأن مآله كيف تُهلك قرية فيها من هو مؤمنٌ، غير مستحق للعذاب؟ ولذا أجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ وكان لوط على شريعة إبراهيم، وقومُه مكلَّفون بها.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ أي غير عجول على الانتقام، كثير التأسف على الناس، راجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والمقصود من ذلك، بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه، وفرط ترحمه، رجاء أن يدفع الله عنهم العذاب، ويُمهلوا لعلهم يُحدثون التوبة، فقالت الملائكة

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾ أي أعرض عن هذا الجدال، فقد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب، فلا سبيل إلى دفعه ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي لا يُرفع لا بجدال، ولا بدعاء، ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً﴾ ودخلوا عليه في صُوَر غلمانٍ مُرْدٍ، حِسان الوجوه، فلذلك ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم، لأنهم جاؤوا في صورة شبَّان، فظن أنهم من البشر، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه بسوء، فيعجز عن مدافعتهم، روي أنهم أتوا لوطاً نصف النهار، وهو يعمل في أرضٍ له، فاستضافوه فانطلق بهم، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما

أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شرُّ قرية في الأرض، فمضوا معه حتى دخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها، وقالت إن في بيت لوطٍ رجالاً، ما رأيت أحسن وجهاً، ولا أنظف ثياباً، ولا أطيب رائحة منهم، فأسرعوا نحوهم يطلبون الفجور بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقةً وجهداً، فالمعنى: ضاق صدره بمجيئهم خوفاً عليهم، وهو كناية عن شدة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه عنهم، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من عَصَبه إذا شدَّه أي يومٌ شديد الهول والمكروه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ أي لوطاً لما علموا بهم وهو في بيته مع أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون لطلب الفاحشة بالضيوف، كأن بعضهم يدفع بعضاً ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل وقت مجيئهم، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فاحشة اللواطة، جهروا بها، ولم يستحيوا منها، حتى جاؤوا مسرعين لها مجاهرين، والمراد من السيئات إتيان الذكور، إلا أنها جُمعت باعتبار تكررها، أو باعتبار فاعلها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدى بهنَّ أضيافه كرماً وحمية، والمعنى: هؤلاء بناتي تزوجوهن، وكانوا يطلبوهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، وقيل: المراد بالبنات نساؤهم، فإن كل نبي أبٌ لأمته، من حيث الشفقة والتربية، فكان كالأب لهن، وهذا القول هو الصحيح، وأشبه بالصواب[1] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تفضحوني ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي في أضيافي، فإنَّ إخزاء ضيف

(١) قال الحافظ ابن كثير: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، اهـ.

الرجل إخزاءٌ له، والضيفُ مصدر، ولذا وُصف به المثنى والجمعُ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ أي أليس فيكم رجل عاقل، يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل القبيح!؟.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ معرضين عمَّا نصحهم به، من الأمر بتقوى الله، والنهي عن إخزائه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لا حاجة لنا ولا غرض في بناتك، وعَنَوْا به النكاح وقضاء الشهوة، أي لا رغبة لنا في نكاحهن، وإنما رغبتنا في نكاح الشبان ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يعنون اللواطة وإتيان الرجال، ولما يئس من ارعوائهم عما هم عليه من الغَيِّ والضلال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو قويتُ بنفسي على دفعكم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أي لفعلت بكم ما فعلتُ ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو أويتُ إلى ناصرٍ عزيز، أتمنع به عنكم، شبَّهه بركن الجبل في شدته، والركن في الأصل الناحيةُ من البيت أو الجبل، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «رحم اللهُ تعالى أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] يعني ﷺ به اللهَ عزَّ وجل، فإنه لا ركن أشد منه. وجاء في الخبر أنه سبحانه لم يبعث بعد لوط نبياً إلاَّ في مَنَعة من عشيرته، وروي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوَّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ٤١١ في الأنبياء، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان.

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ ﴾ بضرر ولا مكروه، فافتح لهم الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام وجوههم، فطمس بذلك أعينهم وأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[1] الآية ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ سريتُ الليلَ إذا قطعته، وأسريت لغة الحجاز، وقد جاء سرى وأسرى وهما بمعنى واحد، ولا يقال في النهار إلاَّ سار، والمعنى: سرْ ليلاً بأهلك ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ بطائفة من الليل والقطعةُ: الطائفة من الشيء والجمع القطع مثل سدرة وسدر ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه، وإنما نهوا عن ذلك، لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقُّوا لهم ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ ﴾ استثناء من قوله سبحانه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ ﴾ من العذاب فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾؟ تأكيد للتعليل، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع، للتباعد عن موقع العذاب، وإنما جُعل ميقاتُ عذابهم الصبحُ، لأنه وقتُ الدَّعَة والراحة، فيكون حلول العذاب حينئذٍ أفظع وأنسب، بكونه عبرةً للناظرين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة القمر، آية: ٣٧.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي وقت عذابنا وموعده ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ضمير عاليها وسافلها لمدائن قوم لوط، المعلومة من السياق، وهي المؤتفكات وهي خمس مدائن، أعظمها سدوم وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام، روي أن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض، حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن فرفعها، ثم قلبها بمن فيها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب، الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع السليمة، وإسناد الجعل إلى الله تعالى إسنادٌ مجازي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، ويقوّي ذلك ضمير العظمة ﴿جَعَلْنَا﴾ وعلى هذا الطراز قوله سبحانه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدائن وعلى أهلها المجرمين ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر، لقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[1] ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متتابع في النزول نُضِد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطر الأمطار.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة للعذاب باسم صاحبها باسم من يُرمى بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه التي لا يملكها غيره سبحانه، وعن مقاتل المعنى: أنها جاءت من عند ربك ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة الموصوفة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من كل ظالم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بسبب الظلم مستحقون لها، وفيه وعيد لأهل الظلم كافة، وعن ابن عباس أن المعنى: وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم ببعيد، وذهب أبو حيان إلى أن المراد من الظالمين ظالمو مكة، وكانت قريبة إليهم يمرون عليها في أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِٱللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]؟.

---

(١) أشار إلى قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾.
(٢) سورة الصافات آية ١٣٨.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ من النَّسب ﴿ شُعَيْبًا ﴾ عليه السلام معطوفة، على قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً، ثم قال: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ ﴾ أي المكيل بالمكيال ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أي الموزون بالميزان، قدَّم أمر التوحيد، على النهي عما اعتادوه من البخس، المنافي للعدل، لأن أمر التوحيد مِلاكُ الأمر، والنقصُ على وجهين: أحدهما: أن يكون الإيفاء من قِبَلهم فينقصون من قدره، والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ بسَعَةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان[1] ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يَخْلصُ منه أحد منكم، والمراد به عذابُ الاستئصال، أو عذاب يوم القيامة، وتوصيف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب، تدلُّ على إحاطة كل ما فيه من العذاب، فهو أبلغ من إحاطة العذاب.

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ صرَّح بالأمر بالإيفاء،

---

(١) قال القرطبي ٩/ ٨٥: ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في سعةٍ من الرزق، وكثرةٍ من النِّعَم ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلكٍ، لا يُفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة.

بعد النهي عن ضده مبالغةً، وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكفُّ، بل يلزمهم السعيُ في الإيفاء بالقسط والعدل، والتسوية من غير زيادة ونقصان ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فإن العثوَّ يعمُّ تنقيص الحقوق، وغيره من أنواع الفساد، والتصريح بهذا النهي بعدما عُلم في ضمن النهي، للاهتمام بشأنه، والترغيب لإيفاء الحقوق لأصحابها.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال، بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف، فإن ذلك هباءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خيراً، لأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة، اعتمدوا عليه، ورجعوا إليه، فيُفتح له بابُ الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة، انصرفوا عنه، فتضيق أبواب الرزق عليه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإن خيريتها مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مبلّغ، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟ من الأصنام، أجابوا بذلك لأنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وغرضهم منه إنكار الوحي، ولكنهم بالغوا في ذلك، وزعموا أن ذلك من الوسوسة والجنون، وقالوا بطريق الاستهزاء ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾

وقد كان عليه السلام كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلي، يتغامزون ويتضاحكون، وغرضُهم من ذلك التعريضُ بركاكة رأيه ـ وحاشاه ـ والاستهزاء به وبآرائه ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أي وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا؟ أجابوا به أمره بإيفاء الحقوق، وكلمة (أو) بمعنى الواو ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشاد؟ وهذا أسلوب تهكم وسخرية، كأنهم يقولون: ما أحلمك وأرشدك!! كقول خزنة النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1] وكقول الساخر المتهكم بالبخيل الشحيح: لو أبصرك حاتم لتعلَّم منك الجود والكرم!!.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، ويقين ثابت، بما أعطاني اللهُ من النبوة والعلم ﴿مِّن رَّبِّى﴾ من مالك أمري، قاله رداً على مقالتهم، في أنَّ أمره ونهيه غير مستند إلى سند ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي وأعطاني الله المالَ الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يسع لي مع هذا الإنعام أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ ولم يتعرض عليه السلام صريحاً لرد قولهم، المتضمن لرميه ـ وحاشاه ـ بالوسوسة، والجنون، والسفه، إيذاناً بأن ذلك مما لا يستحق جواباً، لظهور بطلانه ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بمنعي إياكم عما أنهاكم عنه، من البخس والتطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه، لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته، ولم أُعرض عنه فضلاً عن

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

أن أنهى عنه، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي إلاَّ أن أصلحكم، بأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي مقدار ما استطعته من الإصلاح، وفيه تنبيه على أن العاقل، يجب أن يراعي في كل ما يأتيه، أحد حقوق ثلاثة: أعلاها حقوق الله، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حقُّ الناس ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهداية الله ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في حد ذاته، بل ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر، وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بكليته، وحسم أطماع الكفار، وإظهار عدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يُكسبنكم ﴿شِقَاقِىٓ﴾ أي معاداتي أي لا يكسبنكم معاداتكم إياي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة والصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم، وإنما غيَّر أسلوب التحذير، ولم يصرح بما أصابهم، بل اكتفى بذكر قربهم، إيذاناً بأن ذلك مغنٍ عن ذكره لشهرته، ولمَّا أنذرهم عاقبة صنيعهم، عقبه بالحمل على الاستغفار، والتوبة طمعاً في ارعوائهم فقال:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿ وَدُودٌ ﴾ أي يعامل باللُّطف والإحسان، والودودُ: البليغ المودة بمن يحبُّه، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، وحثٌّ عليهما، فمن كان رحيماً بالعباد، يحنو عليهم ويعطف، ويعاملهم باللطف والإحسان، وجب عليهم حبُّه وطاعته.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ أي ما نفهم ﴿ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ كوجوب التوحيد، والاعتماد على الله، والخوف من عذابه، قالوه استهزاءً بكلامه واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول؟ وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق، على أحسن وجه، وضاقت عليهم الحيل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً، سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاوة، كما هو دَيْدنُ المحجوج، فجعلوا كلامه المشتمل على الحِكَم والمواعظ، من قِبَل ما لا يُفهم، وإلاَّ فكيف لا يفهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، ثم هو خطيب الأنبياء[1]، كما ورد في الحديث الشريف ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ لا قوة لك فتمنع منا، إن أردنا بك سوءاً ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ قومك وعزتهم عندنا، ورهطُ الرجل: قبيلته الأقربون، والظاهر أن مرادهم لولا مراعاة جانب عشيرتك ﴿ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أي لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ولست عندنا بمحترم ولا مكرّم، فتمنعنا عزتك عن الرجم، وإنما نكفُّ عن الرجم، للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير نقلاً عن الثوري ٢/ ٤٧٢ قال: كان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ في جوابهم ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؟ أي أقومي أَهْيبُ عندكم من الله عزَّ وجل؟ أي أتتركوني لأجل قومي، ومراعاة لجانبهم، ولا تتركونني إعظاماً لجانب الربِّ تبارك وتعالى؟ وهو تكرير للتوبيخ والتقريع ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ ﴾ أي جعلتموه، والضميرُ عائد إلى الله تعالى، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أي جعلتم اللهَ كالمنسّي المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والاستهانة برسوله، لا تطيعونه ولا تعظِّمونه؟ ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي بما تعملون من الأعمال السيئة، التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه تعالى، وهو تهديدٌ عظيم لأولئك الكفرة الفجرة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ﴾ ولمّا رأى إصرارهم على الكفر، قال على طريق التهديد لهم: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على استطاعتكم ﴿ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ على مكانتي ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وَصَفَ العذابَ بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه به من الرجم، فإنه مع كونه عذاباً فيه خزي وإهانة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ عطف على من يأتيه والمراد القصد إلى الرد على القوم في العزم على تعذيبه، والتصميم على تكذيبه، فكأنه قيل: سيظهر لكم من المعذَّب أنتم أم نحن؟ ومن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم؟ ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ ﴾ أي انتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي منتظر ما يحلُّ بكم من العذاب!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب بإهلاكهم، نجينا شعيباً والمؤمنين معه، بسبب رحمة عظيمة منا لهم، وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب، فأصبحوا هلكى خامدين لا حراك بهم، ألا بعداً لهم كما بعدت ثمود، والعدول عن الإضمار، ليكون أدل على طغيانهم، وليكون أنسب بمن شبَّه هلاكهم بهلاكهم، لأنهما أهلكتا بنوعٍ من العذاب وهو الصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدين كانت من فوقهم[1]، رواه الكلبي عن ابن عباس.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحات، وهي الآيات التسع ﴿ وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ هي العصا، والإفراد بالذكر، لإظهار شرفها، لكونها أبهرها وأشهرها.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ تخصيص الملأ بالذكر، مع عموم رسالة

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٧٤: ذكر تعالى في هذه الآية أنهم أتتهم الصيحة، وفي الأعراف الرجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقم كلُّها، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه. وهذه من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمِنَّة.

موسى عليه السلام للقوم كافة، لأصالتهم في تدبير الأمور، واتباع الغير لهم ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ فاتَّبعوا أمره بالكفر بموسى، وعصوا أمر الله ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي بذي رشد، وإنما هو غيٌّ محض، وضلالٌ صريح أي وما أمر فرعون بصالح حميد العاقبة.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾.

﴿يَقۡدُمُ﴾ كينْصُرُ بمعنى يتقدّم ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ جميعاً من الملأ وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما كان قدوةً لهم في الضلال والإضلال، يتقدمهم إلى النار ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أي يوردهم، وإيثار صيغة الماضي، للدلالة على تحقق الوقوع، شبَّه فرعون بالفارط أي الوارد الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وأتباعه بالواردة، والنار بالماء الذي يردونه، ثم قال: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه، فإنه يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بالضدِّ، والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فإن هذه عاقبة من لم يكن في أمره رشد.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾.

﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ أي الملأ الذين اتَّبعوا أمر فرعون ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أيضاً يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ بئس العونُ المُعَانُ، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليمدَّه،[1]

(١) قال الزجَّاجُ: كلُّ شيء جعلته عوناً لشيءٍ ومَدَداً له فقد رفدتَه، والمعنى: بئس العون المعان رفدهم وهو اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا مدَدٌ للعذاب ورِفدٌ له، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة، فكانت عوناً ومدداً. اهـ.

والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي رفدهم وهو اللعنة الدائمة في الدارين ويكون الرفد بمعنى العطية، كما يكون بمعنى العون، وفسره هنا غير واحد بالعطاء، وجاء تفسيره بالعون في صحيح البخاري، وتسميةُ اللعنة عَوْناً من باب الاستعارة التهكمية، وأما كونها معاناً، فلأنها أُرفدت في الآخرة بلعنةٍ أخرىٰ.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصَّ تعالى من أنباء الأمم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ المهلكة بما جنته أيدي أهلها ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك عنها بطريق الوحي ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي عامرٌ باق كالزرع القائم، ومنها خراب دمار مندثر كالزرع المحصود، شبَّه ما بقي منها آثاره كالحيطان بلا سقوف، بالزرع القائم، وما عفا ومُحي أثره وبطل، بالحصيد الذي قُطع ودُرِس.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بأن أهلكناهم ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم ﴿ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي حين مجيء عذابه ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي غير إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، والتَّتْبِيبُ: الإهلاكُ، وفي القاموس التَّبابُ، والتتبيبُ: النقصُ والخسار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الأخذ الأليم، والإهلاك الشديد، الذي مرَّ بيانه عقاب ربك ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي إذا أهلك أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثرها إليها، ولتكون عبرة لكل ظالم ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حالٌ من القرى، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا لظلمهم، وإنذار كل ظالم، ظلم نفسه أو غيره، من وخامة العاقبة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يرجى منه الخلاص، وهو مبالغة في التهديد والتحذير، عن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلتْه، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية»[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في أخذه تعالى للأمم المهلكة أو قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لعبرةً وموعظة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ يعتبر بها العاقل لعلمه بأن ما حاق بهم، أنموذج مما أعدَّ الله للمجرمين، فإن من أنكر الآخرة، جعل تلك الوقائع لأسباب فلكية، لا لذنوب المهلكين ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القيامة وعذاب الآخرة، دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس للحساب والجزاء، والتعبير للدلالة على ثبات الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ مشهودٍ فيه، يشهده أهل السماوات والأرضين، لا يغيب عنه أحد، ولم يذكر المشهود تهويلاً وتعظيماً.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم الموعود بالجمع والشهود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، هي مدة انتهاء الدنيا.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٥٤ ومسلم رقم ٢٥٨٣ في البر والآداب والترمذي رقم ٣١٠٩ في التفسير.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ أي حين يأتي ذلك اليوم الموعود ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أي لا تتكلم نفس بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعة ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ أي إلاَّ بإذن الله، كقوله تعالى: ﴿لاَيَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير لأهل الموقف، وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ ﴿ شَقِىٌّ ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ أي سبقت لهم الشقاوة وهم الكفار الفُجَّار ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ مستقرون فيها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفير إخراج النفس، والشهيق ردُّه، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه صراخهم بأصوات الحمير[1].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لابثين فيها ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرضُ، والنصوصُ دالة على تأبيد دوامهم، والآية للتعبير عن التأبيد، والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه، على منهاج قول العرب ما لاح كوكب، وما اختلف الليل

(١) المراد تشبيه أصوات أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصوات منكرة ﴿إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ كذلك الأشقياء لهم أصوات منكرة في جهنم، يحصل منها الزفيرُ والشهيق، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

والنهار، وغير ذلك، وقيل المراد سماوات الجحيم وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، كما نطقت به الأخبار، وقيل: المعنى أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا زمان مشيئته تعالى لعدم قرارهم فيها، وفائدة الاستثناء دفع توهم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى، كما ذهب إليه المعتزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي إن ربك يا محمد يفعل ما يريد، من تخليد البعض كالكفار، وإخراج البعض كالفُسّاق، من غير اعتراض عليه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وجاءت صيغة فعَّال للمبالغة.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، ماكثون فيها على الدوام، ما دامت سماوات الجنة وأرض الجنة، حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تبارك وتعالى لهم الخلود والدوام، وأعدَّ لعباده المؤمنين الصالحين، من النعيم الروحاني، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال عقيبه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، فيعلم منه أن الاستثناء ليس للدلالة على الانقطاع، بل للدلالة على ترادف نعيمٍ ورضوان من الله تعالى.

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي هم

وآباؤهم سواء في الشرك والضلال، فهم على الباطل والتقليد الأعمى للآباء ومعنى ﴿كَمَا يَعْبُدُ﴾ كما كان يعبد، فحذف لدلالة ما قبله عليه، وفيه الإشارة إلى أن ذلك عادة مستمرة لهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ يعني هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه، وفي هذا من الإشارة إلى مزيد فضل الله وكرمه ما لا يخفى، حيث لم يقطع رزقهم مع ما هم فيه من عبادة غيره، وتفسيرُ النصيب بالعذاب مروي عن ابن زيد، وبالرزق عن أبي العالية، وعن ابن عباس ما قُدِّر لهم من خيرٍ أو شرٍّ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكدة من النصيب، أي وافياً كاملاً من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ﴾ في التوراة، وكونه من عند الله، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، كما اختلف هؤلاء في القرآن، فلا تبال باختلاف قومك فيه، واصبر على تكذيبهم كما صبر موسى على تكذيب قومه، حتى يأتي وعد الله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة القضاء بإنظارهم إلى الأجل المعلوم، على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطلون من العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي وإن كفار قومك ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الريبة، لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف، أي وإن كل المختلفين فيه، المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ﴾ أي أجزية أعمالهم خيراً أو شراً، ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واقعة في جواب القسم، أي والله

ليوفينهم، وفيها أنواع التأكيدات ١ ـ (إنَّ) ٢ ـ (كُلاً) ٣ ـ (اللام) الداخلة على خبر إنَّ ٤ ـ حرف (ما) ٥ ـ (القسم المضمر) ٦ ـ (اللام) الداخلة على جواب القسم ٧ ـ (نون التأكيد) وذلك للمبالغة في وعد الطائعين، ووعيد العاصين، ثم أردفه بقوله عز وجل ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما يعملونه من الخير والشر ﴿خَبِيرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمَّا بيَّن المختلفين في التوحيد والنبوة، أمر رسوله ﷺ بالاستقامة وهذا أمر للتأكيد، لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة ولم يزل عليها، وهو كقولك للقائم: قم حتى آتيك، أي دم على ما أنت عليه، وهي شاملة للاستقامة في العقائد، والأعمال، ومحاسن الأخلاق، قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشدُّ من هذه الآية، ولا أشقُّ، ولهذا قال ﷺ: «شيَّبتني هودٌ وأخواتها» وفي رواية أخرى «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات»[1] ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن تاب من الشرك، وآمن معك من المؤمنين الصادقين ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ أي لا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط، أو تفريط، سمي طغياناً وهو مجاوزة الحد، تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على ذلك، وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحرافٍ بمجرد الرأي، وإعمال العقل الصرف، فإن ذلك طغيان وضلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير وحسَّنه ٥/ ٣٧٥ رقم ٣٢٩٧، ورواه الحاكم وصححه عن ابن عباس، ولفظُ الترمذي قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله قد شِبْتَ!!، قال شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، ﴿وعمَّ يتساءلون﴾ و ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾!!».

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ أي ولا تميلوا أدنى ميل، فإنَّ الركونَ: الميل اليسير، كالتَّزَيِّيْ بزيّهم، وتعظيم ذكرهم، ومجالستهم من غير داعٍ شرعي، والقيام لهم ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ والمراد بهم المشركون كما روي عن ابن عباس ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه اليسير من الظلم، موجباً لدخول نار السعير، فما ظنُّك بالركون إلى الظالمين، ثم بالميل إليهم كل الميل، ويبتهج بالتزيِّي بزِيّهم، والمشاركة لهم في غيهم، ويمدُّ عينيه إلى ما مُتِّعوا به من زهرة الدنيا؟ وينبغي أن يُعدَّ ذلك من الذين ظلموا، لا من الراكنين إليهم، بناءً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان: إني أخيط للظلمة فهل أعدُّ من أعوانهم؟ فقال له: بل أنت منهم، والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم!! وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين، حيث جاء في نصيحته قوله: «عافانا الله تعالى وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالى، أصبحتَ شيخا كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله تعالى، فهَّمك أسرار كتابه، وعلَّمك من سنة رسوله ﷺ واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخفَّ ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهَّلت سبيل الغي، اتَّخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرُون عليك إلى بلائهم، وسُلَّماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك، من جنب ما خربوا عليك، فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام»[1] ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ من

---

(١) الإمام الزهري من كبار المحدّثين، وهو على جانب عظيم من الاستقامة والورع، وكان يدخل على الأمراء والسلاطين، فينصحهم ويعظهم ولا يهاب أحداً منهم، ومع =

أنصار يمنعون العذاب عنكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من جهته سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذِّبكم بركونكم إليهم.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي المكتوبة ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غُدْوة وعَشيَّة، والمراد بصلاة الغدوة صلاة الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال العشي ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، الزُّلْفةُ: القربة، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يكفِّرنها ويمنعن من اقترافها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾ وقيل: يمحُونَها من دفتر الأعمال، ويشهد له بعض الآثار، والمراد من الحسنات ما يعمُّ الصلاة المفروضة وغيرها من الطاعات والمراد من السيئات عند الأكثر الصغائر، لأن الكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مكفراتٌ لما بينهنَّ ـ أي من الصغائر ـ إذا اجتنبت الكبائر»[1] اختلف العلماء في أمر تكفير الصغائر بالعبادات، هل هو مشروط باجتناب الكبائر على قولين؟ أحدهما: نعم، وهو ظاهر قوله ﷺ، وإليه ذهب الجمهور، وقال بعضهم: لا يُشترط، والشرطُ في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير مكفراتٌ لما بينهنَّ إلا الكبائر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الاستقامة ﴿فاستقم كما أمرت﴾

= ذلك فقد خاف عليه بعض أحبائه، فنصحه بتلك النصيحة الغالية، التي تفيض بالرهبة والخوف عليه من الركون إلى الأمراء والسلاطين، فكيف نقول ببعض علماء عصرنا الذين انخرطوا مع الظلمة إلى الأذقان، أجارنا الله من فتنة السلطان!!.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٣٣ والترمذي رقم ٢١٤ في كتاب الصلاة.

﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي عظة للمتعظين، وخصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها، دون غيرهم من عُمْي القلوب.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مشاق ما أمرت به، وهو الصبر على طاعة الله تعالى والانتهاء عن محارمه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدل عن المضمر، ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلاً على أن الصبر والصلاة إحسان، ولا يعتدُّ بهما دون الإخلاص، ومعنى الآية: يوفيهم أجرهم من غير بخس، وهو تعليل للأمر بالصبر، وفسَّر مقاتل الإحسان بالإخلاص، وعن ابن عباس المحسنون المصلُّون، وكأنه نظر إلى سياق الكلام، ومن الأسرار العجيبة في البلاغة القرآنية، أن الأوامر بأفعال الخير، أُفردت للنبي ﷺ كقوله: ﴿وأقِم الصلاة﴾ ﴿ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكمةِ﴾ وإن كانت عامة في المعنى، والمناهي جُمعت للأمة كقوله سبحانه ﴿وَلاَ تَركَنُوا إِلى الَّذينَ ظَلَمُوا﴾ وقوله ﴿وَلاَ تَطْغَوا﴾ وما أعظم شأن الرسول ﷺ عند ربه جلَّ جلاله، حيث دفع عنه ما يوهم البغي والطغيان!!.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفجع أي فهلاَّ كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ التي أهلكناهم ﴿أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، وذوو فضل، يقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم، ومنه قولهم «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا» ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الواقع فيما بينهم من الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم، لكونهم ينهون عن

الفساد ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي ما نُعِّموا فيه من الشهوات، وجمع الثروات، والرياسة، وسائر أسباب العيش، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصل الترف التوسع في النعمة، وقيل: ﴿أُتْرِفُوا﴾ أي طغوا، من أترفتهم النعمة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرّين على الإجرام، وهو بيان لبيان استئصال الأمم المهلكة، وهو فشوُّ الظلم، واتباع الهوى، وترك النهي عن القبائح والمنكرات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما صحَّ وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى التي أهلكها ﴿بِظُلْمٍ﴾ التنكيرُ للتفخيم، وللإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية، بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه، وإلا فلا ظلم فيما فعله الله بعباده كائناً ما كان، لما تقرر من قاعدة أهل السنة (يفعل ما يشاء) و (يحكم ما يريد) ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ الباءُ للسببية أي لا يهلك الله القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون، أي يتعاطون الحق فيما بينهم وذلك لفرط رحمته، ومسامحته في حقوقه تعالى، وهذه الآية وما في معناها، من قواعد علم الاجتماع البشري، وهو العلم بسُنَنِ اللهِ عز وجل، في قوَّة الأمم وضعفها، وبدأ ابن خلدون فجعله عِلماً مدوَّناً، ولكنْ استفاد غيرُ المسلمين مما كتبه في ذلك، ووسَّعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين، الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العظيم، في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم، ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية، على شدة حاجتهم إليها، بعضهم يعزّي نفسه عن ضعف أمته، ويعتذر عن تقصيرها بالقدَر، ويسليها بأن هذا من علامات السَّاعة، وارتكس بعضُهم في حمأة جهله بالإسلام، حتى ارتدُّوا سراً أو جهراً، زاعمين أن تعاليمه

هي التي أضعفتهم، والتمسوا هدايةً غير هدايته، ليقيموا بها دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسرانُ المبين.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي مسلمين كلهم، مجتمعين على الحق عن اختيار، بحيث لا يكاد يختلف فيه، ولكن لم يشأ ذلك ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1].

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي إلاَّ أناساً هداهم الله تعالى من فضله، فاتفقوا على أصول الدين الحق، ولم يختلفوا فيه كالمسلمين أئمة أهل الحق والهدى ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ الإشارة كما روي عن الحسن وعطاء إلى المصدر المفهوم من مختلفين، كأنه قيل: وللاختلاف خلق الناس، فحاصل المعنى: أن الله سبحانه خلق أهل الحقِّ، وجعلهم متفقين، وخلق أهل الباطل، وجعلهم مختلفين ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ نَفذ قضاؤه، وورد وعيده بأن يملأ جهنم من الجِنِّ والإنس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي من عصاتهما والكفرة، والجِنَّةُ والجنُّ بمعنى واحد، والآية تقتضي بظاهرها دخول جميع الفريقين في جهنم، والمعلوم من الآيات والإخبار خلافه، فالمراد عصاتهما بالقرينة الشرعية والعقلية، لما عُلم من الشرع أنَّ العذاب مخصوص بهم، ولذا قيل: المرادُ من الجنة والناس: أتباعُ إبليس، لقوله سبحانه في سورة صَ: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والقرآن الكريم يُفسِّر بعضُه بعضاً.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَكُلًّا ﴾ أي وكل نبأ فالتنوين للتعويض عن المضاف إليه ﴿ نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك به ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي من أخبار الرسل السابقين مع أممهم ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي ما نشدُّ به قلبك حتى يزيد يقينك، وفائدته التنبيهُ على المقصود من قصص المرسلين، وهو لزيادة يقينه ﷺ، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار، بالوقوف على أحوال الأمم السالفة، في تماديهم في الضلال، وما لقي الرسلُ من جهتهم، من مكابدة المشاق، ولهذا يقال: المصيبةُ إذا عَمَّتْ خفَّتْ ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ﴾ الأنباء المقتصة عليك ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الثابت المطابق للواقع، والخبر الصادق ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما هو عظة وعبرة للمؤمنين الصادقين، وخص المؤمنين بالذكر، لأنهم المنتفعون بمواعظ القرآن، وأما الكفار فكالبهائم والأنعام.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على طريقتكم ومنهجكم في عدم الإيمان ﴿ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ على حالنا ومنهجنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكر بآياته ومواعظه.

﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة، فالأمرُ وعيدٌ وتهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيرجع أمرك وأمرهم إليه لا محالة ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك، وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل، تنبيه على أنه لا ينفع دونها، أي امتثل ما أُمرت به، ودم على العبادة، وتبليغ الدعوة، وتوكل عليه في ذلك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أنت وهم، فيجازي كلاً من الفريقين بما يستحقه، من الثواب أو العقاب، والله تعالى وليُّ التوفيق لا ربَّ غيره، ولا يرجى إلاَّ خيره، ونسأله سبحانه أن ييسر لنا إتمام ما قصدناه، ويوفقنا لفهم معاني كلامه، على ما يحب ويرضاه، والحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه، وجنده وحزبه.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

* * *